أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

سبب الكفر بنعمه الله، مع ذكر نموذج الكافر المغرور بدنياه، والمؤمن المستعلي بتقواه

{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212) }

"التفسير الإجمالي، وترابط الآيات"

بعد أن ذكرت الآيات حال الذين يكفرون بنعم الله، أتبعت ذلك بذكر سبب كفرهم وجحودهم وهو حب الدنيا، والإغترار بزخرفها يقول الله -تبارك وتعالى:{ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي حُسِّن لهؤلاء الكفار هذه الدار العاجلة، وما فيها من اللذات والشهوات في الوقت الذي يسخرون ويستهزئون بأهل الإيمان الذين يرجون ما عند الله، ويعملون للآخرة، ومن ذلك الإستهزاء قولهم: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟، وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران.

ثم بين الله تعالى أن الشأن كل الشأن، والتفضيل الحقيقي، في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء الدائم، الذي لا منتهى له، فهذا هو التفاضل الحقيقي، وليس التفاضل الدنيوي، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لايحب، أما الآخرة فيعطيها لمن يحب، فهذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين.

ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية، لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

هداية .... وتدبر

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا	العبد إذا ازداد تعلقه في هذه الحياة الدنيا، فإن ذلك يكون على حساب العمل للآخرة، والاستعداد لها، فالتعلق بهذه الدنيا بما فيها من اللذات والشهوات، واشتغال القلب بذلك، له آثار سيئة ومن ذلك الإعراض عن الآخرة وعدم العمل لها لأن الله يقول: { مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} فاستحالة اجتماع حب الدنيا والتعلق بها، مع حب الآخرة والعمل لها في قلب واحد.
	كل ما في الدنيا يُزين للإنسان، والله -تبارك وتعالى- يقول: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} [سورة القيامة:20] هذه المحبة للدنيا يشترك فيها كثير من الناس، ولكن الكفار هي غايتهم، فتعلقهم فيها تعلق أكبر وأعظم فهم يعيشون من أجلها، والله يقول: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [سورة آل عمران:14] والمتاع هو الشيء الذي يُتمتع به، لكنه لا يدوم، ولا يبقى؛ ولهذا سمى الله الدنيا بالمتاع، {مَتَاعُ الْغُرُورِ} [سورة آل عمران:185] أي يغتر بها من لا بصر له، فتأسره بما فيها من الزينة، وقد مثّل الله -تبارك وتعالى- ذلك بالماء الذي ينزل من السماء، ثم بعد ذلك يختلط به نبات الأرض، ثم بعد ذلك يتحول إلى هشيم تذروه الرياح؛ وأنتم ترون الربيع وما فيه خضرة ويفرح الناس به ويلهون ويمرحون ثم ما يلبث إلا أن ينتهي.
	{زُيِّنَ} بالفعل الماضي ليدل على الإستقرار والثبوت والرسوخ، أي أن الدنيا قد رُكزت في نفوسهم، وثبتت واستقرت، فهم يعملون لها، ويفضلونها على كل شيء.
	{ **وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا** }في السخرية عبر بالمضارع الدال على التجدد والحدوث، فالسخرية مستمرة في وقت نزول القرآن، وقبل نزول القرآن، ونوح ومن بعده من

	الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان قومهم يسخرون منهم، يقولون لنوح كنت نبيًّا، ثم أصبحتَ نجارًا، وسخروا من هود وشعيب وصالح ولوط وإبراهيم -عليهم السلام، لكن ذلك لم ينفعهم، ولم يغن عنهم شيئًا، فأهل الإيمان حينما يواجَهون بالسخرية من قِبل الكفار، فإن هذا أمر لا يُستغرب، فهذه عادتهم لأن الدنيا قد زُينت لهؤلاء الكفار، وحببت إلى نفوسهم، فلايرغبون في الآخرة، ولايقدرون من يدعوهم للعمل لها. لذا عندما تبتلى في طريق الدعوة فاعلم أن هذا سنه، وقد سبق إليك فيها الأنبياء.
	العاقل لا يسخر من الناس، وموسى لما قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة البقرة:67] فالذي يسخر من الناس، ويستهزئ بهم من الجاهلين، فليس ذلك من أفعال العقلاء.
	في هذا الإخبار عن هؤلاء الكفار أنهم يسخرون من الذين آمنوا: وهذا تلطف بأهل الإيمان، حيث إن الله -تبارك وتعالى- أخبرهم عما يكون من هؤلاء الكفار، من أجل ألا يثقل ذلك عليهم، وألا تشتد وطأته على نفوسهم، فتكون نفوسهم قد تهيأت لمثل هذا الأذى، فهو شيء قد عرفوه وتوقعوه، فهم ينتظرونه، وصارت نفوسهم مستعدة لتلقيه. فعندما يخبرك الله أنك في طريق الإستقامة سيتم السخرية منك، فيقول لحيته تصل الى ركبته، ويمسح بها الأرض، أو من سمات الإرهابي لبس القميص الأبيض ووضع السواك في جيبه، أو المنتقبة والمختمره هذه متخلفة ورجعية، أو عندما تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر يقولون أنتم حرمتم علينا كل شيء، فهنا تصبر وتحتسب ولاتشعر بالإستثقال.
	هؤلاء الكفار قد جعلوا شغلهم الوقيعة في أهل الإيمان، يسخرون منهم {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [سورة المطففين:30] فهم يسخرون منهم بحركات، وإشارات، وعبارات، كل ذلك لوجود المخالفة في الأهداف والغايات والاهتمامات والعقائد تجعل من هؤلاء حربًا على أهل الإيمان، فهم لا يكتفون بالإعراض والاشتغال بدنياهم، بل إن ذلك يحركهم إلى السخرية من المؤمنين، كيف يصدقون بيوم

	آخر وبالجزاء والحساب، ويطوعون أنفسهم للعمل في مرضاة الله وعبادته؟!. فإياك أن تكون ممن يحارب الحق لأن نفسك لاتهواه، أو لأنه يخالف ما تربيت عليه، فتكون ممن تعلق بالدنيا، وعزف عن الآخرة.
	يكفي في بيان حقارة هذه الحياة الدنيا أنها سميت بـ(الدنيا) لدنو مرتبتها وانحطاطها، فهي لا تستحق أن تكون الغاية والهدف الأسمى للإنسان، فالدنيا قنطرة يتوصل بها إلى الآخرة، يعمر فيها الإنسان وفق شرع الله -تبارك وتعالى، دون التعلق بها والتهافت عليها، والذي يوفق لهذا الفهم هو مَن فتح الله بصيرته، وعرف الأمور على حقيقته.
	خطورة التزيين قد يزين للإنسان شهوة، أو معصية، ثم بعد ذلك تستهويه، فلا يسمع، ولا يبصر، فتتحول بصيرته فلا يرى ما في ذلك من العيب والنقص والانحراف والضلال، وقد يراه أكمل ما يكون، ويرى أن المعرضين عنه والمشتغلين بغيره أنهم مخطئون، وضالون عن الصواب، وهذا في غاية الخطورة. والشيطان يفعل ذلك مع الإنسان بصورة متدرجة دون أن يشعر، إذا نقص من إيمانه، وأكب على الشهوات والمعاصي، وقلت عبادته وطاعته، صار بعد ذلك التحول التدريجي؛ كالضعف في البصر يتدرج شيئًا فشيئًا، وكذلك يكون الضعفً في البصيرة، فلاترى الأشياء على حقائقها، فتتغير وتتبدل وتتحول، وهذا نراه كثير جدًا فيمن انتكس على الطريق فقد كان في غاية الإقبال والحرص على طاعة الله والغيرة على دينه، ونشر الدعوة وبيان الحق للناس ثم تتحول اهتماماته، ويتغير منطقه، وتتغير نظرته للأمور، فيكون ممن ينشر الرذيلة، ويصد عن سبيل الله، ويحارب الدعوة التي كان يدعو إليها أصالة، فنسأل الله الثبات على الحق.
وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	جاء بهذه النتيجة؛ لأن العبرة بكمال النهايات، والمعيار في الآخرة ليس كما هو الحال في هذه الحياة الدنيا، أضعف أهل الإيمان في الدنيا فوق أقوى أهل الكفر في الآخرة، مهما كان هذا الكافر في عتوه وجبروته وثرائه وقوته.

	وهذا تسلية لأهل الإيمان بأن الله ينصرهم ويوفقهم ويسددهم ويأجرهم، فيصبروا ويحتسبوا. شيخ الإسلام ابن تيمية مات في الحبس مضطهد، والآن كتبه وعلمه ينير الأرض، ونحتسب عند الله أنه في الجنان يتنعم فيها، وهو فوق كل من ظلمه وعاداه.
	لم يقل: وهم فوقهم يوم القيامة، ولم يقل: والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة، فأظهر في موضع يصح فيه الإضمار؛ لفائدة مضافة، وهو أن وصف التقوى هو الذي يعلو به الإنسان ويرتفع، فالتقوى هي التي ينال بها العبد الدرجات العالية، والسمو والعزة في الدنيا، والرفعة في الآخرة، والدرجات العلى من الجنة، فالناس إنما يتفاضلون بهذا فالنجاة والخلاص والسعادة لا تحصل إلا بالإيمان والتقوى، فبحسب مراعاة العبد لطاعة الله وتحقق التقوى ظاهرًا وباطنًا يكون النصر والفوقية يوم القيامة.
	التعبير جاء هنا بالجملة الاسمية يدل على الثبوت فعلوهم على الجميع أمر ثابت لا يتبدل ولا يتغير. أما التزيين والسخرية عبر عنها بالفعل الدال على الحدوث، فالسخرية في الدنيا فقط، والتزيين يكون عبارة عن غشاوة على أبصارهم في الدنيا، لكن حينما تحق الحقائق تنجلي عنهم تلك الغشاوة، كما قال تعالى {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:22] ثم بعد ذلك يكون النعيم المقيم الثابت، والسعادة الأبدية لأهل الإيمان.

أحوال الأمم مع الإهتداء

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213) }

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

وبعد أن ذكرت الآيات كفر النعم، أردفت ذلك ذكر سبب اختلاف السابقين من أهل الكتاب على أنبيائهم، وأن بغيهم هو علة كفرهم، {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين صار فريق من أهل الإيمان، وفريق من أهل الضلال والكفر، {فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ} فرحمهم الله وبعث الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم {مُبَشِّرِينَ} من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة، {وَمُنْذِرِينَ} يخوفون من عصى الله، بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك، سخط الله والنار، {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، المشتملة على الحق، ودالة عليه، تهدي الناس إلى الحق الذي وقع بينهم الاختلاف فيه فتهديهم إلى الأخلاق الكريمة، والمعاملات السليمة.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف بغيًا وحسدًا وعدوانًا {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} أي اختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

{فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} من هذه الأمة {لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ} فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة {بِإِذْنِهِ} تعالى وتيسيره لهم ورحمته وتوفيقه وتسديده؛ كما جاء عن النبي ﷺ: { نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يومَ القِيامَةِ، بَيْدَ أنَّهُمْ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، وأُوتِيناهُ مِن بَعْدِهِمْ، وهذا يَوْمُهُمُ الذي فُرِضَ عليهم فاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدانا اللَّهُ له، فَهُمْ لنا فيه تَبَعٌ، فالْيَهُودُ غَدًا، والنَّصارَى بَعْدَ غَدٍ}[1]

{وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، هداية ارشاد ودلالة وبيان، عدلا منه تعالى، وإقامة الحجة على الخلق، لئلا يقولوا: {ما جاءنا من بشير ولا نذير} وهدى – بتوفيقه ورحمته - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

هداية .... وتدبر

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً	الحق هو الأصل الثابت الراسخ الذي كان الناس عليه، والناس خلقوا على الفطرة كما قال النبي "كل مولود يولد على الفطرة" لكن تحصل الانتكاسة كما قال النبي ﷺ: "فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"، وينبغي أن يُدعى الناس إلى مقتضى الفطر، وما كان عليه أباهم آدم إلى عهد نوح، وهذا يدفع أهل الحق إلى نشره وإعلانه وإذاعته، وأن يكون ذلك أثبت لقلوبهم، وأرسخ لأقدامهم، ومن هنا تظهر أهمية الإهتمام بالتوحيد وتعليمه للكبار والصغار لأنه الأصل والغاية من الخلق. فعندما تبتديء في الدعوة لابد أن تبدأ بالتوحيد، وعندما تبتديء في التربية تبدأ بالتوحيد، فتعبد العباد لرب العباد.
فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ	رحمة الله -تبارك وتعالى- بالخلق، حيث أنه حينما وقع الانحراف والضلال جاء الرسل فكان أول الرسل هو نوح فدعاهم إلى الله -تبارك وتعالى- وإلى الإيمان به وتوحيده.
	قدَّم البشارة في مهام الأنبياء، وأعمالهم، فينبغي العناية بها

(1) صحيح مسلم 588.

	وألا يُغفل ويُطّرح، ويعتدل الإنسان في وعظه وتعليمه وخطابه للناس، وفيما يبعث إليهم من رسائل، فإن الكثيرين ربما يغلب جانب النذارة أو الوعيد أو الترهيب، ويذكر الأمور التي تنقبض منها النفوس، فأين التبشير لأهل الإيمان؟! والنبي ﷺ يقول: {بشروا ولا تنفروا}[2] .
وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ	من رحمته -تبارك وتعالى- بخلقه، ولم يتركهم في عماهم وغيهم وكفرهم وضلاله، بل أنزل كتبه التي فيها بيان الحق، وكيفية التعبد لله، فلابد من البعد عن الأهواء، واختيار المناسب في الشرع بالعقل، والذوق، لأن الله أنزل كتابه الذي يتضمن كل أنواع الإهتداء. ومن هنا لايصح إذا أمر الله المرأة بالحجاب تقول لا أقتنع، أو أنا آخذ ما يناسبني.
وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ	خصَّ بالذكر الذين أوتوه، فهذا لشناعة فعلهم، فهم أوتوا الحق والهدى والكتاب الذي يوضح الحق ويجليه، ومع ذلك وقع منهم الاختلاف، ولم يلتزموا الأمر، ولم ينقادوا إلى الحق، فحريٌ بما رزقه الله العلم أن يكون أول العاملين به.
	المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام- لم يكن التكذيب ناشئًا عن جهل ونقص في براهين الحق، وإنما كان ذلك بسبب البغي، وهكذا ما يقع بين طوائف الأمة من الاختلاف المذموم، فإن ذلك يرجع غالبًا إلى البغي، والحسد.
	جاء بلفظ (من) الدالة على ابتداء الغاية، يعني: أن ذلك بمجرد ما جاءهم مباشرة، فلم تكن هناك مهلة للنظر والتفكير، ثم بعد ذلك يتوافقون على أمر تجاه الحق، وإنما مباشرة ردوه بمجرد أن طرق أسماعهم، وهذا يدل على شدة عتوهم ومكابرتهم.
	لا تقوم الحجة على الناس، ولا يستحقون العقوبة إلا بعد قيام البينات، والحجج الواضحات، فالله -تبارك وتعالى- لا يُؤاخذ الناس حتى يأتي من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من يُبيّن لهم الحق ويجليه، وعندئذٍ تنقطع أعذارهم، فالله -تبارك وتعالى- بعث الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة. لذا لايصح أن يقول قائل: أنا أشفق على الكفار، أو على

(1) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا برقم: (69) ومسلم في الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم: (1734).

	أهل الكتاب لأنهم لم يعرفوا الحق، لأن الله يوضح لكل إنسان الحق بطريقة تناسبه، ومن سمع وقرأ قصص من أسلم يفهم ذلك.
فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ	قدَّم الاختلاف لم يقل: فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق الذي اختلفوا فيه، وإنما قال: لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وهذا للاهتمام به؛ لأن هذا الاختلاف هو الذي جعلهم يفترقون، وكان ذلك سببًا لبعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام. فإياك والإختلاف وترك الحق بغيًا وحسدًا، بل لابد من الإنقياد للحق وعدم النظر لمن معه الحق، ودائما تدعو وتقول: " اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحقّ بإذنك " ومن طلب الهُدىٰ من الله ... هُديَ إلى صراطٍ مستقيم، لذا أمرنا الله أن نسأله الهداية في كل ركعة في الصلاة.
	رحمة الله -تبارك وتعالى- بأهل الإيمان، حيث هداهم إلى الحق الذي وقع فيه الاختلاف ورحمته بهم حيث لم يكلهم إلى عقولهم، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [سورة المؤمنون:71] فأصحاب العقول -كما يدعون- من أهل الكلام، حينما رجعوا إلى عقولهم، وتركوا المنقول من الكتاب والسنة، صاروا فرقًا متناحرة، وكثر بينهم الشر والحيرة والبدع والأهواء، نسأل الله العافية.
	العبد كلما تكامل إيمانه كان ذلك أدعى إلى إصابة الحق، والهداية؛ لأن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، فأهل الإيمان يهديهم ربهم -تبارك وتعالى- في العاجل والآجل في الدنيا والآخرة {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } [سورة يونس:9] كلما ازداد الإيمان، كلما ازدادت الهداية.
	الهداية من الله -تبارك وتعالى، ومن ثم فإن العبد بحاجة إلى أن يسأل الله ذلك دائمًا، كما في حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ كان إذا قام يصلي من الليل يقول: {اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك،

	إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم}[3] ، وسؤال العبد الهداية يبعث العبد على التواضع لربه -تبارك وتعالى، وألا يلتفت إلى نفسه، ولا يقول: أنا اهتديت، أو أنا منذ نشأتي وأنا مستقيم على الحق، أو أنا كنت في بيئة منحرفة فاخترت طريق الهداية، ولم أستجب لدواعي الانحراف، ونشأت في طاعة الله وكانت المغريات حولي كثيرة، أو أني كنت في بلاد فيها كثير من الفساد والشر والمغريات، ومع ذلك كنت ألزم الحق، ولم أتابع هؤلاء الذين ينحرفون عنه، ولم أتأثر بالرفقة السيئة، ونحو ذلك، فهذا كله التفات إلى النفس، وإنما الذي هداك ورحمك هو الله -تبارك وتعالى، فهذا الشعور يدفع عن العبد العجب، ورؤية النفس، ويجعله يسأل ربه دائمًا الثبات على الحق.

(1) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم: (770).

مثل المهتدين الذين ثبتوا على الحق

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214) }

"التفسير الإجمالي، وترابط الآيات"

القرءان مثاني بعدما بيَّن ما حصل من السابقين الضالين، جاءت الآيات بالمثال الناصع للمؤمنين المهتدين الذين ثبتوا على الحق ليقتدي بهم المؤمنون فينالوا مصيرهم، يقول الله تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} أظننتم -أيها المؤمنون- أن تدخلوا الجنة، ولما يصيبكم من الابتلاء والامتحان، مثل ما أصاب أهل الإيمان الذين مضوا من قبلكم {مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ} وهي الفقر، وشدة العيش {وَالضَّرَّاءُ} وهي الأمراض في أبدانهم، {وَزُلْزِلُوا} بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، حتى بلغ الأمر بهم أن يقول الرسول وأهل الإيمان حينما بلغت الشدة غايتها {مَتَى نَصْرُ اللَّهِ} بسبب شدة الأمر وضيقه استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} إذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك، الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.
فهي سنه الله الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها؛ ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عن الطاعة، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.
هذه الاية نزلت في غزوة الاحزاب حين قال قائلهم: مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

إلا غُرُورًا [الأحزاب: 12] حين لقي المؤمنون ما لَقوا من شدة الجهد، من خوف الأحزاب، وشدة أذى البرد، وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ، يقول الله جل وعز للمؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا إلى قوله: وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا [الأحزاب: 9-11]

هداية .... وتدبر

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا	همزة الاستفهام فيها للتقرير مع توبيخ، فهو إنكار واستبعاد بأن أحدًا يدخل الجنة من غير ابتلاء، واختبار وتمحيص، وهو يخاطب المؤمنين به من باب التحفيز، وتهيئة النفوس للصبر والاحتمال لما قد يقع لهم من الشدائد التي تكون في الأبدان من العلل، والأمراض، وقد يقع ذلك للإنسان نفسه، وقد يقع لمن يحبهم من الأهل والقرابات؛ وكذلك أيضًا الفقر والشدة، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.
	الراحة في الجنة، ومن كان يظن أن الراحة في هذه الحياة الدنيا فهو مخطئ، وعليه أن يغير هذا التصور، لأنه بهذا الظن سيتعب وسيعاني ويكابد؛ ولكن إذا وطَّن الإنسان نفسه على أن الراحة لا يمكن أن تتحقق إلا في الجنة، فإن ذلك يجعله متهيئًا لما يناله، ويقع له من المكروه، ويكون أيضًا متأهلاً للصبر، وقد يترقى من الصبر إلى الرضا بما قدر الله، وقد يرتقي من الرضا إلى مرتبة الشكر، وهو أن يشكر الله على ما أصابه من المكروه؛ لأن الله ساق له ذلك عن علم وحكمة، واختار ذلك له؛ ليمحصه وليرفعه لا ليكسره، كما قال النبي:"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر،

	فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له"[4] . وكما قال شيخ الإسلام -رحمه الله: بأن المؤمن مثل الغنمة، حيثما انقلبت فعلى صوف، فالسراء لها عبودية، والضراء لها عبودية.
	رحمة الله -تبارك وتعالى- بهذه الأمة، حيث أخبرهم بما سينالهم، من أجل أن يوطنوا نفوسهم على الصبر والثبات، والتوجه إلى الله -تبارك وتعالى- وحده، حتى تأتي ألطافه ومدده، فلا يفجأهم الابتلاء، فيكون وقعه شديدًا عليهم.
	يبتلي الله الإنسان بحسب إيمانه لينال رفعة الدرجات الإبتلاء الواقع على العباد يكون للجميع المؤمن والكافر، البر والفاجر، ويبتلى المرء على قدر دينه، فالصلاح والاستقامة لايجعل الإنسان بمنأى عن الابتلاء، وقد سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة}[5] ، يعني إذا كان في دينه صلابة شُدد عليه، وإذا كان في دينه رقة خُفف عنه، فهذا أمر لا بد من وقوعه. من الناس من ينظر إلى حاله، وما هو عليه في ظنه من الاستقامة والطاعة والصدقات، ونحو ذلك، ويرى ما يقع له من الابتلاء في بدنه وولده وماله، ونحو ذلك، وينظر إلى حال من حوله من قرابات، ونحو ذلك مع ما هم فيه من التفريط، إلا أنهم في دنياهم في حالٍ أفضل من حاله، فيجزع وينكسر ويتسخط، ويسوء ظنه بربه، والحق أن المكروه حينما يقع بالإنسان ليس ذلك لأن الله -تبارك وتعالى- لا يحبه أو أن الله ضيعه،

(1) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير برقم: (2999).
(2) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم: (2398) وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء برقم: (4023) وقال الألباني: "حسن صحيح".

	بل كما قال النبي: {إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع}[6].
	الإنسان في حال الإبتلاء عليه أن ينظر في علاقته بربه -تبارك وتعالى، ويتوب من التقصير والإساءة والذنوب، فهذا هو طريق الجنة كما قال النبي: {حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات}[7] فطريق الجنة محفوف بأنواع المكاره والمشقات، وسواء كانت هذه المكاره مما يتعلق بالعبادة نفسها، كأن يستيقظ من فراشه للصلاة، ويكابد الصلاة في الليل، ويتردد على المسجد خمس مرات في اليوم والليلة، والطهارة في أوقات البرد، أو شدة الحر، ونحو ذلك، فهذا كله من المكاره، وحينما يترك الإنسان ما حرم الله ولو كان ذلك فيه تضحيات بشيء من المال، أو الوظيفة، أو نحو ذلك.
	الصبر على الابتلاء وهو من أسباب دخول الجنة، كما تدل عليه هذه الآية: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ} فالنفس لا تصلح ولا تزكو ولا يحصل لها التمحيص إلا بالابتلاء، فالابتلاء يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، والمؤمن من المنافق، كالذهب يُخلَّص جيده من رديئه حينما يُفتن في كير الامتحان، فبذلك يحصل الميز، فإذا كانت النفس مقصرة ظالمة جاهلة، فهي بحاجة إلى هذا التمحيص، وإلى هذا التطهير، وكم من محنة جلبت منحًا، وكم من علة أدت بصاحبها إلى إفاقة، ومراجعة، وحال مع الله -تبارك وتعالى- ما كان العبد ليصل إليها من غير الامتحان والابتلاء.

(1) أخرجه أحمد ط الرسالة برقم: (23633) وقال محققو المسند: "حديث صحيح، وهذا إسناد منقطع.
(2) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم: (2822).